ريح السموم

« روايــة »

صفاء عبدالمنعم



مهرجان القراءة للجميع ٢٠٠٣

مكتبة الأسـرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(سلسلة إبداع المرأة)
إشراف: عفاف السيد

ريح السموم «رواية»
صفاء عبدالمنعم

تصميم الغلاف
والإشراف الفنى:
للفنان : **محمود الهندى**
الإخراج الفنى والتنفيذ:
صبرى عبدالواحد
الإشراف الطباعى:
محمود عبدالمجيد
المشرف العام :
د.سميـر سرحـان

الجهات المشاركة :

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية

وزارة الثقـافـة

وزارة الإعـلام

وزارة التربية والتعليم

وزارة التنمية المحلية

وزارة الشـبـاب

التنفيذ : هيئة الكتاب

ريح السموم

« روايـــة »

على سبيل التقديم:

لا سبيل أمامنا للتقدم والرقى وملاحقة العصر إلاّ بالمزيد من المعرفة الإنسانية.. نور يهدينا إلى الطريق الصحيح، ولأن مكتبة الأسرة أصبحت أهم زهور حدائق المعرفة نتنسم عطرها ربيعًا للثقافة المصرية الأصيلة.. فإننا قطعنا على أنفسنا عهدًا ووعدًا ليس لنا إلا الوفاء به لتثمر شجرة المعرفة عطاءً للأسرة المصرية.

د.سمير سرحان

الكراهية: إذا بدأت فإنها قادرة على أن تحول الدنيا
إلى خرم إبرة، فيسهل على جيل ورث عداء عن
الأسلاف أن يختلى بجيل القبيلة الأخرى فى
الرقعة الضيقة حتى يبيد أحدهما الآخر.

إبراهيم الكونى
- المجوس -

ـ الفصل الأول ـ

-١-

أصرت مروة العبد أن تجلس جوار نعش العمة عاليا، وتحكى لها بإصرار مفرط فى الدهشة عن جماليات المكان، وما تبقى من تاريخه القديم.

العربة تتقدم عابرة الطريق من المطار إلى الترب فى عرب الحصن حيث مدافن الأسرة.

وتتوالى الحكايات والاستشهادات. وكأن العمة تسمع ما ترويه لها مروة عبر المسافات الفاصلة بينهما من الغيبة والوحشة وترهل الأصدقاء.

ماتت العمة عاليا بالأقصر فى السابعة صباحًا. وجاءت كى تدفن إلى جوار الأجداد والأباء، والعمات السابقات.

والعمة الكبيرة، راوية الحكايات، وما تحمله من تاريخ وأسرار.

وتواصل مروة رواية حكايتها بفراسة ومشاعر حزينة.

يوم وداع عاليا الحصن عام ٥٠، وقفت العمة في الميناء تبكى وتنادى:

. سلام يا بنت أخوى

اللُقَا يوم اللُقَا.

حملت عاليا قلبها، وقلب عمتها، واسمها، وسمات شخصيتهاوملامحها.

فكانوا ينادونها دائمًا: حبوبة العمة.

عاليا الكبيرة.

وعاليا الصغيرة.

متجاورتان...

ومروة العبد تروى ما بينهما، علها تشفى غليل الأيام.

* * *

بدأت بكِ يا عمة يا كبيرة علكى تنهضين من رقدتك الأبدية، وتثيرين بعض الشجون فينا. حينما كنت تقفين طويلاً فوق التل، وتنادين بصوت مرتفع طوال الليالى القديمة:

- ريح عاليا قادمه.

إنى أشمها من بعيد.

وتقومين بدعك أنفك الكبير بقوة، وتصيحين زاعقة:

- رجل عزيزة يابنت أخوى.

تضحك أمى وتزم شفتيها كاظمة غيظها:

- والله يا عمه أنتِ مكشوف عنِك الحجاب.

تقومين بطردها وتعنيفها:

- أومال زيك يا عبده.

قليلة الحليلة والولد.

تقوم أمى ناهضة، تدخل حجرتها باكية. أجرى عليكِ حاضنة لكى، تضمينى إلى صدرك ضاحكة.

- عاليا حبيبة العمة.

ومروة حبيبة العمة.

سلالة الهنادى.

* * *

فى نظرة العمة عند آخر الحدوتة، حدود الذاكرة تتسع بين فصين، وبعينين مطفأتين، أحاول النوم، وأنا أجوب خلف الأزرق الداكن وأسحب ملاءة دافئة.

قالت:

الموت أمامى اليوم كرائحة زهرة السوسن، وكما يقعد الإنسان على شاطىء السكر.

إن الموت أمامى اليوم كرائحة بخور المر، وكمثل إنسان يقعد تحت شراع فى يوم شديد الريح.

لم أدرك كم عامًا مضى، وأنا هكذا ما بين النوم والتهىء، كل ما أدركه أنى أميز ملامح ما قبل الإستغراق فى لذة مختلطة برائحة الموت، وأغنية ترن فى أذنى كانت تقولها: بينى وبينك حُرقة إشتهاء.

وماتت.

برفق تحسست جسدى وجدته مشدودًا برياط رأس مزركش، وأشياء صدفية، أحوطها بيدى، أسمع صوت الغناء.

وكلما تهب الريح وترحل، يزداد الصوت.

وتأتى العمة بحكاياتها، وبقليل من الصمت ألوذ بآخر أمنية فى صدرى... أريد أن أراها.

* * *

جئت إلى هذه المدينة المزدحمة. كى أنجو من مخاوفى.

ترى ماذا يكون هناك؟

الشارع ممتلىء بالمارة، والأقدام تحوطنى، تهرس رأسى، إننى أحاول، ولكن ربما أسير متباهية بإنقاذى من الموت (طفلة فى حضن أبيها ترتعد، والعمة تلفظ أنفاسها الأخيرة، وسط زحام الأهل.)

ماذا لو أصرخ ، مخترقة حجبًا من الزرقة والخضرة والصمت؟

ـ أحبك عمتى مفتوحة الحدود. وشموس لها أجنحة ـ

هناك فى البعيد الآتى بعض الطقوس المعدة للوشم على صدرى، وبعض خيوط ضعيفة تشدنى إليك.

دون أن أدرى. كأن الموت تحت قدمى ، يسحبنى إلى عمق لانهائى ، دون أدنى محاولة منى للفكاك، وقفت العربة...

أندحت وراء شعور ما، أحس كأن القبر مفتوح الذراعين ، ويستقبلنى.

سحبنى الرجل الواقف من يدى بعيدًا .

ـ دورك انتهى لحد هنا يا ست.

حين صب الماء على جسدى.

لم أكن تجردت منها كاملاً تلك الرائحة الأولى.

رائحة أنثى.

وصوت أمى..

(الأوله باسم الله

والتانيه

والتالته، لاحول ولاقوة إلا بالله

جاره تقول للجاره، يا حاسده يا مكاره، يا جار مانتش فى خساره...)

إيه اللى مسك بس يا بنتى؟)

* * *

حين أدخلوك عمتى حجرة خالية إلا من عينين ويدين ورداء، وتوارى خلف الأبواب كل من تجابهه عيناكِ

«مباح دمك سيدتى»

آه لم تعد ذاكرتى تحمل أكثر من هذا!

وأنا أتلفح بالبرودة والعرق، وأهذى من الحُمة والألم. ضربت رأسى فى الحائط وناديت: أتركونى.

إنى أموت.

الموت أمامى اليوم، كمثل المريض حينما يشفى.

وكمثل الذى يمشى فى الخارج بعد المرض.

لطمت أمى خديها وصرخت

وعندما تسرى القشعريرة فى جسدى أشعر بإحتضارعصفور، وذبول وردة على الجانب الآخر.

كانت الشمس قد ضربتنى فى رأسى

وفى ليلة..

رأت أمى وهى قابعة على عتبة البيت

رجل غريب يدخل.

شعرت أنها تعرفه، فطقطق شعرها وأرتفع.

صرخت : ابتعد.

ورشته بحفنة ماء ، وقالت: البت لسه صغيرة ثم تفت على يسارها.

لا شيء فى رأسى الآن.

* * *

كانت عمتى تتهرنى حين لا أداعب خصلات شعرها وندغدغ أحلامنا معًا.

وتغنى لى: البت كبرت

وبزازها نابأت

يا بابا جوز قطقوطه.

ارتمى فى حضنها وأضحك.

تخط على الأرض خطين، ثلاثة خطوط

وتناديني:

هذا بيتك

وهذا بيت العمة عاليا

وعندما أموت سيملأ البيت بالعرائس والملائكة

أضحك.

وأنا على حافة النوم.

- سيملأ بالعديد والصراخ ونواح أمى.

تنادى: يا بنت العبده.

النار مضرمة بداخلى.

وتريد من يؤججها.

وتطفىء النور.

يلفنى السواد.

يلفها نور

تصوب تجاهى نظرات لم أدركها

ثم تغط فى نوم عميق.

وفى الصباح

تنادى أمى : يا بت حمينى

وهاتى بقرشين كرمله.

وشمعه.

وهاتى طبق ملح وسكر،

وأعجنى جنه.

ثم تطردنى من الحجرة

وتنام ليلة كاملة بمفردها.

الشمعة مضاءة، داخل طبق الحناء على الترابيزة إلى جوارها، وحولها الكرملة والسكر والملح.

وفى الصباح التالى..

تعطينى بقايا الحلوى، وتضع فى كفى قطعة من الحناء وتقول:

أدعى له أن يأتى.

أتكاثر عليها.

تضربنى بعكازها: يا بنت الكلب.

بعدها تسللت على أطراف أصابعى.

رأيت للمرة الأولى عمتى تغسل كعبيها بالحجر ، وتتكحل تستعيد امرأة كاملة. ولت منذ أعوام، وتغنى بصوت حنون:

بينى وبينك حرقة اشتهاء

كانت تنتظر صوت آخر يأتى يناديها.

- يا عاليتى.

تقوم واقفة. تفتح له الباب، تفتح ذراعيها وتستقبله

يوم ماتت.

غسلت أمى البيت بعرق حلاوة، وتقاوى رجلة، وعلى فترات متباعدة تصرخ.

- ابتعدوا

البيت ينهار.

وأراها عنيفة ، صارمة.

- عمتك كات مخاوية....

* * *

-٢-

أنا من هنا.. من هذا المكان!

أنا مثلكم، سمعت الحكايات، ورأيت السماء والقمر، والبحر ملىء بالحوريات.

يعجبنى يا مروة أنك تحبين الغرباء.

لكنى لستُ غريبًا عنكم؟

فى يوم ، صبيحة أحد، أصطحبتنى أمى إلى الكنيسة، يومها رأيته واضحًا.

(مبارك هو الرب، مبارك يا يسوع)

وعلق فى رقبتى، ووشم على يدى.

كان الأزرق باهتًا فى عينى.

ماكنت أقدر أن أنجو من مخاوفى ، ولا أحتمل حمله.

ثقيل هذا الداء؟

كنا صغارًا.

نلهو وراء الشمس الغاربة، نصيد الفراشات. ونمرح خلف الزنابير.

ونجرى:

(أبوح يا أبوح

كلب العرب مدبوح

وامه وراه بتنوح

وتقول ياولدى

يا طالع الشجرة..)

- يا عسوب ياوديع.

يا عسوب..

أوعى يلسعك.

أنا لا أذكر إن كان حدث أم لا..؟

لكنى أشعر أن طفلاً صغيرًا يلهو وراء الزنابير، تصتدم عينيه فجأة بجسد لين فوقه على الأرض.

سحابات كثيفة من الأزرق حولنا.

ونار مضرمة بداخلنا.

يسقط فجاة العالم والعرف الإجتماعى كحائط ضخم، يكسره المغامرون.

تدحرجت على الفراش كثيرًا

لم أنم بعدها طوال ليالى عديدة.

أفاطمَ مهلاً بعض هذا التدلُّلِ
وإن كُنْتِ قَدْ أزْ معتِ صُرْمِى فأجْملى
أَغرَّكِ منِّى أنَّ حُبَّكِ قاتلى
وأنَّكِ مهما تأمرنى القلبَ يفعَلِ

***

كان يروق لى أن أسرق الشمس عبر الشيش وأدخلها فراشى.

فيسرى لهيبًا فى جسدى، ولاتغمض لى عين ، ولأيام طويلة أظل نائمًا.

أهلكت من الشمس ما يربوا على المئات. شموس صغيرة لها أجنحة.

كنت قد خطفتها، وخبئتها داخل جسدى كى تظل النار مضرمة بداخلى.

لم يعد لدى من الوقت حسبان، هل حقًا أنا بشر، إنسان له حق الحياة والعشق والمعاشرة...؟

أ م أنى مجرد جسد تدفئه حرارة الشمس، ويدخلها عنوة داخله.

الشوق يحرقنى إلى المغامرة.

العنف كثيرًا ما ندفع إليه رغم إرادتنا

أشياء لانستطيع أن ندركها، وأخرى محرمة علينا، لمجرد أننا....؟

إن رأسى مثقل بالهواجس والجنون.

أى هوس أحمله داخلى.. يا صديقتى؟

* * *

- ٣ -

الليل كتاب ضخم!؟

تفتح فيه المغاليق، وتخرج منه الأسرار سابحة فى فضاء واسع وعميق.

تهزنا المشاعر المختفية بين إرادتنا والحلم ، وأحيانا نشعر أننا ندفع دفعًا خلف مجهول ما يسحبنا إلى عمق لانهائى.

بعد دفن عمتى عاليا، وشفائى من ضربة الشمس، التى كادت تهرسنى تحت حرارتها.

فتحت عيادتى، وعدت إلى ممارسة هوايتى المحببة (قراءة التأريخ).

وأثناء إنشغالى فى كتاب (مصر ولع فرنسى) لا أعرف لماذا تجمعت الصور والمشاهد وتداخلت الأراء ، وتبادلت الأدوار.

العمة الكبيرة عاليا، بجوار العمة الصغيرة المتوفية حديثًا، بجوار وديع الشاب الذى أحب وأخلص لفاطمة حبيبته، والتى كتب فى حبها قصيدة وحيدة ، ثم هجر الشعر بعدها ، فأصبحت القصيدة بالنسبة له بيضة الديك.

ضحكت عندما أهدانى النسخة الوحيدة، رغم أنى لستُ فاطمة، ولكن لكى أحتفظ بها من الضياع، وأصير أنا الوحيدة من بين نساء العالم حافظة سره وحبه وقصيدته.

أخرجت الورقة بحرص من المكتب وفتحتها، كأنى أفتح سر الكون، سر الوجود، ووقعت عيناى على الكلمات.

أفاطمَ خَشَّتْ إلى القلب مُهرةٌ

ما شَرَختْ غبش القلب

وعَطَّلتْ

كأنِّى

أرمحُ فى دمى

ها أنا فادحٌ جدًا

وصغيرٌ كعاشق

أفاطمَ بعد الخَشْيَةِ وبعد الرضا

يلوحُ

يلوذُ بالخِلْقَةِ وبالراسياتِ ولا يصبِ

قليلون يدخلون العتمة، ويغامرون بالروح والجسد . الواقفون على الحافة يرون ما يظهر لهم

ولايجادلون فى السرى والخفى؟

بعد قراءة هذا المقطع، قررت أن أذهب إلى فاطمة وأخبرها .

ولكننى تراجعت.

***

صدق وديع أنه راهب فى محراب الحب. وأن أمواته يحثونه تجاه الحفاظ على عذريته، حتى يأتيهم طاهرًا.

لم يُمس من قبل؟

سَرح فى فوضاه طويلاً، وأمن على أحلامهم، خاصة وأن وجوده أصبح يمتلىء بهم كل يوم.

فيجلسهم حسب مكانتهم الإجتماعية ودرجة الصلة.

كان ضخم الجثة، يسد مدخل الباب بطلعته، ويحث الأخرين على العمل والمحبة.

وأضحك. كيف لجسد مثل هذا، قلب عصفورًا؟

آمن بعد طول عناء أنه لافائدة، فهو هالك مثل السابقين. وأن البقاء للحب العذرى.

فبدأ يصلى كثيرًا.

ويكثر العطايا.

وأصبحت مائدته عامرة بالطيبين والأصدقاء.

فتح الباب ولم يغلقه.

ماذا فعلتَ يا غاشمَ القلبِ...

ساستْ عُيونكَ بحرا

أم غِيضَ طرفُكَ

هذه المدنُ تقومُ

كأن المدى مَدَاها

وكأنى لستُ بغاشمٍ

دعوته إلى عيادتى، كى أفسح مكانًا له بين الأحياء.

- وديع.

الجميل فى هذا العالم أن تصبح همجى ووقح ولو للحظة واحدة.

تحيا فيها وجودك.

وتنسى أننا أغبياء.

- نحن مغلفين بأعراف، وننام على أمل أن نصبح كما يحلو لنا.

مغسلون من الخيبة والعتمة.

- بإمكانك الآن، أن تفتح صدرك للهواء، للرصاصات.

وأستنشق ملء رئتيكَ.

- أنا خارج وغير مبال....

وعدت لقصيدته، لقراءة مصيره الذى أختاره وأختص به نفسه.. تاركًا وراءه حبًا وكلمات ترقد داخل درج صديقة له.

غاشمٌ قلبى غاشمُ

يقيسُ المدى باشتعالهِ

إذا

ما مَررَتِ فاطمةُ وسيِّفْتِ غارقًا فى العشقِ

بالوسـوسـات وبالتـعبِ

وثبتُّ طللاً، وثبتَ فـتى

ورحـتِ تـقـصِّيـن لـهـن:

البنات الواقفات على عتبات

عيونهن

أن الفـتى سـيـدُ

وأن الـسـيـدَ

رجـرجـةً واشـتـعـالٌ

ومـشـهـدٌ لاينقـضى.

***

لحظة الصمت أشبه بقارب يطفو فوق سطح الماء، يتهادى خارجًا من العتمة.

لكنه لايعرف وجهته.

قررت أن أذهب إليه، أرجعه عن رحلته

التى سوف يمضى إليها

وقرار سفره المفاجئ هاربًا من حبه.

مثلما فعلت العمة عاليا قديمًا ، سافرت هربًا إلى فرنسا مع زوج أجنبى، فضلت الهرب بقلبها.

الهرب وسيلة سهلة، ولكن احتمال العواقب، والغربة صعبًا.

طرقت الباب.

عرف سبب مجئ.

وقبل أن يغلفه ثانية، أخبرته أنه يهرب.

- وديع.

لاتنسى قبل أن تنام أن تضىء النور؛ وتغلق الباب جيدًا.

- ......

- أشعر بكَ تغادر مخدعكَ . تاركًا وراءك كل ما تظنه خجلاً

- أتركينى كى لا أخجل أمامك وأنا أبكى.

* * *

- ٤ -

تركتنى مروة وانصرفت ، وأنا أحاول أن أمشط أفكارى

وأطيح بها بعيدًا.

الروح شجرة مثقلة بالأوراق والذكرى.

وللأوز الأخضر جناحان، ولى أم تطبخ وتكنس وآخر الليل كانت تجمعنا وتحكى لنا.

عن ابن السلطان.

وبنت الطحان.

ونمرح خلف الزنابير فى المغارب، هل لى أن أجرح الكون وأزعجه؟ كنتُ صغيرًا

حين تركنا النوم ولهونا خارج البيت فى عرب الحصن رأيت يومها ملاكًا يهبط، يلفنى ، يضمنى، ويحلق بى بعيدًا.

باركتنى أمى، ومن يومها صرت رهينة هذا الحب، بحبك يا فاطمه.

يا خوفى يا وديع لتكون خوان.

أنا وهى...

نرحل بعيدًا عند الشمس ، بعيدًا، عن الناس والبيوت، نسافر محملين بالنشوة والهياج.

أما زلت تحبها يا قلبى.

إنها أنا..

حين أراها، أعرف أن الشمس لم تغب.

وانى لم أخض معارك ، ولا حروب.

ولم أقطع شرايين يدى يوم زفافها.

وإنى فى سفر طويل.

فى الشارع، كانوا يتهامسون، وديع بيحب فاطمة.

وأطلقوا علينا النكات الفاضحة

أضحك وأضمها إلى صدرى

ينظرون بعيون ملئها الدهشة.

نواصل الضحك والمرح والحديث، طفلان لانبالى بنظراتهم، ونهرب حيث يكون العالم أوسع من أحضاننا الصغيرة وأناديها.

ـ بحباا ا ا ك. ـ

بحبا اااالك.

وأضمها إلى صدرى.

- ياخوفى يا وديع لتكون خواف.

***

- ٥ -

«فجاة هبط علىَّ النوم، كأن ساحرة تداعب أهدابى، وتحاول أن أستسلم للنوم.

ما أشهى الموسيقى التى تنبعث من داخلى الآن ، أنها تاتى من البعيد ..

من عهود قديمة ممتزجة دون تميز كأن جوقات واكسترات ومزامير وطبل ونحاسيات كل هذه الأصوات تتداخل وتتالق وتاتى إلىَّ من البعيد، عهد قديم، تسحبنى إلى عمق لانهائى، وأرانى أستسلم لها وأنام.

أنام وهى مازالت تعزف فى هدوء وصخب. أن الحروف الهيروغليفية الملونة تدور فى مواكب غير متحركة حول الأعمدة الضخمة كالأبراج ، ويفتح الصقر جناحيه فوق زخارف المدخل.

وتحمل تيجان الأعمدة رؤوس نساء ينظرن بأعينهن المنحرفة،

وتبسط تمثالى أبو الهول مخالبها المليئة بالألغاز، وتنتصب المسلات والنصب مزينة بنقوش رمزية.

كل شىء منذر وغامض فى هذه العظمة المرعبة التى تضئيها شمس محرقة».

وانشغلت عيناى بمتابعة المشهد ، وتتقدم امرأة عجوز عجفاء تشبه العرفات، تمديدها بخنجر قديم ومسلول، تطعنه ورأيته خارجًا بذيه الكهنوتى وعود البخور فى يده يرتل...

(أذهب يا بتاح نفر، فقد تفتحت لك السماء، وتفتحت لك الأرض، وانفسحت لك طرق العالم السفلى كى تخرج وتدخل مع الإله رع، فتسير مستمتعًا بحريتك كأى سيد من أسياد الأبدية)

حاول أن يسحبنى معه من يدى ويدخلنى إلى حيث أدخلوا الجسد.

صرخت.

فوجئت بصوت أمى تضىء النور وتوقظنى.

- بسم الله الرحمن الرحيم

مالك يا مروة

مالك يا بنتى؟

- وديع أتقتل...!

***

- الفصل الثانى -

-١-

فتاة فى الحادية عشر. كيف تواجه فوضى المظاهرات التى تجتاح الشوارع.

.. فاطمة - يا فاطمه.

صوت أمى بالباب. أفتحه.

- تعرفى يابت الجمعية أتسرقت.

والناس هناك أمم.

إللى شايل زيت، وإللى شايل سكر.

والواد سعيد ابن البقاله.

شال كرتونة صابون بحالها وجرى.

وامه طايره وراه حافيه وشايله صفيحة سمنه.

صدفه يابت الدنيا برد ، والناس فى بيوتها، والعالم طيحين.

كله شايل ومهلب.

- وأنتِ؟

- أنا !

- مالك مبلوله كدا ومش على بعضك؟

قو ليلى يا امه.

وأنت خدتى إيه؟

- أنا!

لأ يا اختى، أنا خفت.

عسكرى يشوفنى ولا حاجه يطير ورايا.

وبعدين داحرام.

دابتاع الحكومة.

لأ يا اختى لأ.

***

فى أحداث يناير ٧٧.

رفضت أمى أن تسرق فى الهوجة.

رغم أنها كانت داخل الفوضى.

بالصدفة.

والأن أواجه أمى، لقد أصبحت الفوضى داخلنا.

نحن فى قلبها الآن.

رفضت أن تسرق مال الحكومة.

وكل يوم كنت أراها تسرق من جيب أبى وهو فى الحمام.

وأنا ألبس المريلة

تمديدها داخل جيبه

وتنادى.

- يا فاطمة - فاطمة

عايزه قرش ولاتعريفه.

- قرش يا امه.

قرش.

***

إنچيل، أطول بنت رأيتها إلى الأن، تزوجت.

كنت أراها تسـيـر فى الشـارع تنط، تنط مـثل الجـمل. يدخل مصطفى ويراها من الشباك يضحك.

- والنبى هبله.

أقف أنا وهو نضحك عليها صباحًا.

يرانى وديع يكتم غيظه ويبتسم.

- صباح الخير يا مصطفى.

أنچـيل، أخت وديع الكبـرى ، من يومهـا وأنا أنكسف من نظرة عينيه.

رأيته يومًا أنا وأمى عائدًا من الجامعة ووجهه أحمر من شدة الحر.

- تصدقى يا امه، أنه حلو.

- حلاوة الندامه.

داعضمه زرقه

أغلقت الشباك، ولم أراه ثانية.

آه يا وديع.

لو أمى عرفت إنى بحبك، قوى.

***

-٢-

وديع.

ميلاد لويس حنا.

أبن جارتنا الشامية، هاجرت إلى مصر فترة الحرب هى وأهلها وتزوجت تاجر مصرى.

يسافر ويتجول كثيرًا.

ويتركها هى والبنات والولد.

إنچيل الكبرى، سناء الوسطى، ومريم صديقتى الصغرى والأم الجميلة كاسرة كل القوانين والعادات.

تلبس المينى چيب والكعب العالى.

وأمى ترتدى الملس والطرحة الطبيعى.

والبنات الجميلات بناتها، وخاصة الوسطى، تخرج كثيرًا ، وتلبس أفخم ثياب رأيتها.

وشباب الحى يمشون وراءها، تحدث معارك بينهم ، يتعمدون الوقوف على الناصية عند مرورها، وينادونها باسم من كانت معه بالأمس.

كأن هناك أتفاق ضمنى بينهم، وبعدها يخرج وديع، ويقف معهم وينضم إليهم مصطفى، وأراهم يتضاحكون جميعًا.

أغلق الشيش وأدخل أعود إلى مكتبى.

أمتلأ غيظًا، وأعود مسرعة. أفتح الشباك بعنف.

ينظر تجاهى ويبتسم، ويعود مصطفى إلى البيت وينصرفون.

الشقة الوحيدة فى الشارع التى لها براندة. وأم مقصوصة الشعر تضحك ولاتستحى.

- أزيك يا فاطمه.

تنهرنى أمى فى عنف.

- تعرفى يا بنت الكلب.

ما شوفك واقفه مع بناتها، ولاتخدى منهم حاجة هاموتك.

إمبارح.

الواد سعيد ابن البقاله شفته ماسك البت الصغيرة وزنقها جوه الدكان....

ولا حدش قادر يحوشه.

ابن الكلب واد عفى، غلبهم.

لولا أنا ضربته بحديده الباب

ووقع.

* * *

- ٣ -

كيف لطفلة فى الحادية عشر من عمرها أن تمتلك العالم، وتعرف..؟

أن كيس الدم الذى تحمله بين فخديها عليها أن تحافظ عليه.

- وكنا نلتقى..

ونرتمى فى أحضان بعضنا بكامل ملابسنا.

لايا وديع.

لحسن حد يشوفنا.

وأهرب عندما يفط الدم فى عروقى.

وأحمر خجلاً.

وأطير خارجة من الحجرة.

كانت دروس الحساب هى المنجى والملاذ واللقاء.

وخلعت ثيابى بكامل إرادتى ، والقيت بها خارج الحمام وجلست على الكرسى ساعة كاملة أدعك كعبى بالحجر، كما أوصتنى أمى.

ـ عشان كعابك ما تشققش.. ادعكيهم بالحجر، ويا ريت رجلكى بالمره.

أنا عارفه طالعه مشعره لمين؟

لم أكن استطيع طوال الفترة السابقة لسفرك أن أظل حبيسة الجدران.

وحبيسة هذا الإفتراض.

أن تتركنى فجاة ياوديع.

والا تخوض غمار معركة من أجلى.

أو أن نتلاشى ونصبح كائنين مختلفين تمام الإختلاف

فلا نلتقى ثانية.

وفى لحظة يصبح كل منا لايعرف الآخر.

أو نصبح مجرد ذكرى فى نهايات العمر، نتذكر أنه كان يوجد هناك حب ، وصار ذكرى.

هذه الأشياء تؤرقنى، والتفكير فيها صعب.

أو أن تحب غيرى هذا محال.

صحيت ذات يوم وجدتك أمامى.

وذات يوم وجدتنى أحبك.

ليكن بحكم العادة، شرط الوجود، لكنى أحببتك.

وديع لاتكن أثقل مما أحتمل.

صدفة جمعنا بيت واحد، وصدفة وجدتك أمامى نكبر ، ونحلم ، ونجرى ونهرب.

أحبك..

بدليل أنك الأن بعيد عنى لمسافات طويلة صعب إجتيازاها . ولكن فاطمة تحبك..

* * *

-٤-

حبيبتى/ فاطمة.

لن أنكر أنكِ أوجعتى قلبى، وقلبى متعب.

وأن خطابكِ، أفسح فى صدرى مكانا لسؤال هام إن حملى ثقيل

وأحيانا أسأل نفسى كيف أحتمل ثقل العالم بدونها؟

العالم حولى مرهون بإشارة منها.

وأحلامنا كم هى صغيرة وضعيفة.

ضغطة واحدة من يد أخيك مصطفى يمكن أن تنهى كل الحلم الذى حلمناه.

ويمكن أن نضيع بجرة قلم ، أو طلقة رصاص، يوجهها أخيك.

أو أى شخص لانعرفه، ربما يكون الرجل الجالس أمامى الآن وهو يبتسم.

فاطمة.

لنكن أكثر جنونًا، وأقل إباحية.

الحب شيء مختلف عما نريد أن نكون فيه.

لنكن كل شيء.

أو لاشيء اطلاقًا.

أنا أراهن عليك.

المسافة الفاصلة بيننا الأن إختيار حقيقى. لنكن أقل إنشغالاً بذواتنا ونفسح مكانا لهموم حقيقية.

إنى أضعف من فراشة تقترب من الضوء.

فاطمتى.

بالأمس حلمت بكِ، بحـر هائج وأنا وأنتِ نجـدف بكل قـوانا ولانصل....!

وفجأة أرتفع الموج، وصار كل منا بعيدا عن الآخر وينادى ولايسمعه.

حبيبتى/البحر يفرقنا، ونحن ضعيفين

- وديع -....

***

ـ ٥ ـ

سهرتُ ليلة كاملة، أحدث نفسى... ما هو النضج العاطفى؟

ما هى الهموم التى ذكرها وديع فى رسالته؟

العلم/ العمل/ الحياة/ العالم/ الإختبار/ التجربة/ معارك الحياة...

التجربة أصدق إختبار، هى الإمتحان الحقيقى، كى نواجه فوضى مشاعرنا.

أنا فى انتظارك دائمًا.

أعتدت منذ وقت طويل أن أغلق الباب على نفسى، أجلس متأملة وجهى فى مرآة الحائط، ورثتها عن أبى، كان يحلق فيها ذقنه كل صباح.

يوم وفاته أعطاها لى وابتسم (دى بلچيكى أصلى) كنت لاأقتحم

خلوته، لذا أحترم رغباتى ، وأخذت حجرته، حتى أمى نفتنى داخل حجرته، وتركتنى لصمتى..

وتجلس بالساعات بمفردها، تصمت طويلا، ولايقطع سكونها أحد. حتى طرق الباب، لاتفتح إلا إذا خرجت من حجرتى وفتحته.

مصطفى أخى الودود، يحاول أن يفتح كل المغاليق، ويرسل بريحه قبل أن يأتى.

يبعث برقية ودودة (أنا قادم .. فى إبريل) إبريل، ريح السموم، وذر الرمل فى العيون، والخروج من الخلوة الشتوية،

والتأهب لصيف حار وطويل.

ما أقصى المسافات. تطوى دائمًا فى برقية صغيرة

(سأصل فى إبريل.)

كان يداعبنى دائمًا وهو يزم شفتيه من الضحك (يا شيخه السعودية.. دى فركة كعب)

بينه وبينى آلاف الكيلومترات، ولكنها فركة كعب.

وصل هو ووديع أول إبريل.

وابتسم بعد مناورات ومناواشات طويلة، ونادى:

ـ يا وديع.

أدخل فى الموضوع.

ـ أريد الزواج من فاطمة.

صمتت أمى، وصمت مصطفى.. إقتحم الصمت صدورنا.

وأخرج وديع ورقة إشهار إسلامه.

ضمها مصطفى بين يديه وقال:

- أرحل.

ولاتدع الآخرين يقتحمونك.

أنت هكذا متسرع دائمًا.

حين التقينا أنا ومصطفى فى المرة الأولى بعد طرد وديع.

رأيت شيئًا لم أراه ، أو ألمحه فى عينيه، شىء أفزعنى من أول وهلة.

وجذبنى من ذراعى.

- غير دينه عشانك....؟!

رفضت أن أقتحمه.

اردت معرفته ، والتأكد من أنه مختلف.

ليس هذا هو مصطفى الذى عرفته طويلاً.

لقد أصبح شرسًا.

المعارف الثابتة والمسميات الجاهزة إمتلكته وصف وديع بحقارة ودقة وحذر وتفوه بأشياء لم اعتدها منه من قبل. ثم بصق

فى وجهى.

- أنتِ سافلة

مصطفى ، أصبح سلطعون صغير.

ونما بيننا فجأة خوف كبير.

أنا ومصطفى ووديع.

خوف ظهر فجأة فى المسافة الفاصلة بين الرغبةوالفعل، بين هنا والهناك، وضحكة فركة كعب، ولكنه نما.

حاولت ملء الفراغات الكثيرة، والسنوات الفاصلة، والمسافات، والكيلومترات، ولكنه نما فجأة بيننا جدار من الخوف والرهبة.

«الكراهية: معارك بيننا كثيرة قادمة»

ظهر بهذه الجملة. وإندفع نحوى هاجمًا، تشدق بها كثيرًا، وهو يعنفنى برهبة وقسوة.

ويظهر شدة وقوة غاشمة.

وأنا أصاب بضعف وحزن عميق.

وأتنفس ببطء شديد.

أصبح بيننا صمت ثقيل، يقتل كل حماس، أو توتر، أو حتى كلام عابر أو سريع.

وأمى هادئة.

- أنا لا أحب هدوءك هذا يا أمى.

- تحبى أكون عنيفه زيه.

أنا اشد حزنًا عليه منكِ.

الحكمة المبالغ فيها تسقط ، عند أول تجربة من شخص غير مبال بحكمتك.

- لاتخدعى نفسك يا أمى بأهمية وجودك.

- وجودى.

ماتت أمى ، وتركت الباب مفتوحًا، تركت كل ما هو مألوف، تركت فراغًا لمصطفى يملأه بأوامره ونواهيه الفظة.

هل أسافر معه؟

أغير العادات والتقاليد والمكان، أبحث عن وجود مختلف، وأترك الأخرين يدخلون حياتى، ويهدمون وجودى مثله.

أختلاف الدلالة والطبيعة، وتغير الأمال والأحلام. أن أترك كل ما هو مألوف لدى.

أن أبحث عن ظل، وتظل النار مؤججة ومؤجلة داخلى.

أن أدخل مغامرة كبيرة، وألقى بكل جسدى فيها.

- مصطفى هل السفر معك شىء هام من وجهة نظرك؟

- ربما يكون التغير.

- والأختلاف.

- وهم .. ولابد من التخلص من نزوع الجسد ونزواته والمثابرة.

عندما قرأت رسالة وديع، كنت مندهشة كثيرًا.

لماذا فى هذا الوقت بالذات يدعونى للهرب.

والمناخ غير مستقر والأحوال غير ما تركها. كل شىء أصبح فى أرتباك.

أخرج إلى الشارع وأنظر إلى الماضى والحاضر والمستقبل.

بدأ الزحف غير المتوقع.

خليط من الأشياء والمعالم غير الواضحة، احيانا كثيرة أحتار.

هل أنا فاطمة؟

أم مسخ لاينتمى لشىء.. والإشارب الذى فرض مصطفى علىَّ لبسه يخنقنى... المستقبل أين أنا؟

بعد أن أنتهى من صلاة العشاء دخلت حجرته.

- مصطفى لن أسافر معك.

جذبنى من شعرى بعنف.

- اسمعى يا ابنة أبى.

الماض شيء ، والحاضر شيء آخر

وما نحن فيه الآن مأزق (المغامرة، الحب، التطرف، الشرق، الغرب، كلها عشوائيات)

حاولى أن ترى الشمس ، اجعلى النور يدخل قلبك.

- ماذا تقصد بالضبط.

- لا أعرف.

موج يتخبط والبحر واسع وعميق، وأنا وأنتِ بداخله، لو اسلمتى نفسك للتيار، سوف يدفعك الموج إلى حيث يشاء.

وإذا قاومتى ستتخبط رؤاك ، وربما لاتصلى لشىء. كل شىء فى إرتباك.

وعدم الحيطة يؤرق.

- مصطفى.

أنتِ مخطىء.

- يا أبنة أبى افهمى.

التيار غاشم ، وندفع تجاهه دفعًا.

- قاوم.

تخلص منه.

لقد عزمت على السفر وأنتِ معى.

* * *

-٦-

أنا مع من؟

وضد من؟

جملة موحشة، ولكنها تسوقنى إلى معرفة غير واضحة هل مصطفى خائن؟

متواطئ؟

كان يدهشنى كثيرًا.

المستقرون أمثاله، الذين يتكلمون وهم فى وضع ثابت وآمن وبثقة، كأن العالم استقر وأتضح أمامهم.

كل شىء صف داخل رأسهم.

خانات ثابتة من الأطمئنان والخشوع والوهم.

سافرت معه كما يحلو له بالضبط.

وما عليَّ إلا أن أختار خانة أسكن داخلها وأستريح.

كل شىء فرغ من محتواه حتى اللغة سقطت منى.

لغتهم . طريقتهم، طبيعتهم بالنسبة لشخصية مثلى، كانت غريبة.

كانت الأمور جد صعبة عليَّ ، غير متضحة المعالم.

فكيف أستقر، ومازال كثير من الأمور غير واضح .

وديع؟!

إن المحبة الخالصة شىء مبهم ومثالى.. وعبيط. إذا أتفقنا أصلن على ذلك.

المحبة/ العطف/ الصداقة/ الوطن/ الإنسان.

كل هذه مسميات فى اللامعنى.

وأنا مثل سراب تراه من بعيد، تتوهم أنك تعرفه ولكنك لن تصل إليه أبدًا.

لقد تزوجت.

شيخ عربى يعمل أخى عنده.

إذن أنا أنتمى لهذه الحياة الأن.

لا.. لا لاأنتمى.

الأسماء الجوفاء هذه تقلقنى، لذا أحب أن أجرب مسمى جديد.

أسميها متطلبات المرحلة.

اسم يحلو لى.

هذا ما أفعله.

أخلق أسماء ومسميات جديدة، ومشتقات صعبة.

***

ـ الفصل الثالث ـ

١٠

كانت رائعة وعينيها زائغتين طوال الوقت، لا تستقر على شيء بعينه.

تنتقل من المقعد، للأرض، للباب، إلى كل ما يحيط بنا.

وفى النهاية زمت شفتيها بقرف وقالت: مسيو وديع...

أنت وقح.

هكذا دون مبرر.

مرت أيام، وأنا لا أعرف، ما هى الأمور الحقيقية أو التافهة التى جعلتها تقول ذلك.

كل ما أذكره، أنى كنت متعب للغاية، ولا أحتمل البقاء طويلاً دون التحدث مع أحد.

الأيام جد ثقيلة على إنسان مثلى، خصوصًا فى بلد مثل فرنسا.

(الحب، الإخلاص).

لابد أن أترك كل هذا وراء ظهرى، كى أعيش الغربة، ثمن باهظ للحالمين.

وقابلتها.

كانت فى الثلاثين تقريبًا، تخجلك بنظراتها الحادة، وعينيها التى لا تنزلهما عنك طوال الوقت.

والجرأة فى خوض المعارك.. بطريقة وشخصية، تجعلك تراجع كل ما عرفته سابقًا عن المرأة.

وأن ما نراه، وما نسمعه، غير ما تعرفه هى.

الخبرة الحقيقية فى السفر والحرية والإختيار.

أن تفعل وتقول ما تريد فى اللحظة ذاتها.

لو أن فاطمة أو أنچيل أو مريم، خرجن خارج السياق الآخر.

لأصبحن شخصيات مختلفة.

لأصبحن أكثر أهمية ومجازفة.

الخبرة وتغير المكان، أضفتا إلى مروة العبد الطبيبة المصرية المقيمة مع عمتها فى باريس، ملامح جديدة إلى أنوثتها.

جعلتها فى معترك الحياة.

هى الحياة.

مروة العبد.

امرأة، تعشق الحرية والحب وأغانى عبد الحليم وتبكى إذا رأت زهرة على الأرض.

وتضحك بملىء فميها عندما ترانا نقف حولها ونبتسم فى أرتباك.

- بنچور مروة.

تدخل عربتها، وتغلق الباب بشدة وهى تضحك.

- عندى شريط جديد لعبد الحليم.

أزيك يا وقح.

أصفق على يدى من الضحك، وأهرج فى إستخفاف.

- عامله مودرن.

كنا نحيا كما يحلو لنا، ونمرح كما نريد، ونزقزق مثل العصافير.

* * *

أنا لا أظن.

أنا أتوجس فقط.

ومع ذلك.

أحببتنى، قلت أجرب.

نعم قلت أجرب.

كانت أكثر مجازفة وخرقًا للعادة، هى عكس فاطمة.

- ماذا تقصد؟

- أقصد ما أعنيه يا سليمان.

أبنة خالك.

مختلفة تمامًا، إنها النقيض.

- لا تهرب.

إنى أعرفك جيدًا.

مروة تعاملك مثل أخيها، مثلى مثلاً.

الحماقة بعينها أن تخلع ملابسك وتقف عاريًا فى وجه الريح.

مهما أدعيت من الشجاعة والقوة.

فهناك شىء ما دائمًا ينقصك كى تحيا وجودك كاملاً.

- المواجهة.

- لازلت تردد الكلمات.

- الفروسية شىء جميل، ولكن يجب عليك أن تفعل أخطاء وتمحوها، أن تخطىء بقدر ما تستطيع.

ـ بشرط ألا تتخفف كثيرًا من ملابسك حتى لا تظهر عاريًا وواضحًا.

هكذا تعلم.

تعلم يا وديع.

حاول أن تغير من ذاتك بقدر.

جدد ماء النهر.

عش بشكل مختلف.

ـ أى أختلاف تقصده؟

ـ مازلت مستلب لصالح الآخرين.

سجنت روحك داخل قفص ضيق، ورغباتك لم تتحرك.. إلى الآن لم تخض معارك حقيقية.

ـ هذا كل شىء؟

ـ المهم أن تعرف كيف تبدأ، وليس كيف تنتهى؟

وديع.

دع الممارسة والمعارك تدخلك، تصل بك إلى شىء مختلف.. ربما ترى بعينيك شىء آخر، غير مروة وفاطمة.. أترك جسدك للتيار.

ولا تجبره على المقاومة.

تخلص من الأثقال التى تعوقك.

أخرج.

أخرج من سجنك الصغير.

* * *

■٢٠■

شيء يدخلني بقسوة ووحشية، شيء لا أعيه تمامًا، ولكني مدركة. حين يهزني هزًا عنيفًا، يجعلني أشعر بثلج في صدري، وعرق غزير يملأني.

يوم قلت لها: أحبك.

لم أدر من المخطيء، فقط تملكني شعور بالإحباط وانصرفت مسرعًا.

كنت أداعب أحلامًا صغيرة تقفز في صدري.

ولد وبنت.

هل أنا همجي؟ هل وصلت إلى حد الفوضى؟ وتجاوزت حدودي.

في العمل وجدت ورقة على مكتبي تحذرني.

(أنا لا أحب في الحياة أمثالك).

إلى الآن لم أعـرف، لِمَ، لَمْ أترك المكان فـورًا، فـقط أنكمـشت داخلى وهربت.

على السلم قابلتنى مروة.

لم ابتسم، لم أنظر إليها، لم أنزل سريعًا.

تركتها واقفة.

(كم نحن مجروحين بالحب).

تفـاجئنى فى لحظة طائشـة، أن العـالم لم يعـد حـولنا.. وأننا معذبون بالمفاهيم والحب والعادات.

وللأوز الأخضر جناحان.

ولى أم تطبخ وتكنس، وتغنى، وآخـر الليل تجـمـعنا، تـرسم دائرة وتسمينا.

- أنتَ ابن السلطان.

وأنتِ بنت الفوال.

ونطيـر، نحلق، نرتجف بين الأحضـان الصـغيرة، ويجـرى كل منا، وتحكى لنا عن بلاد للغز، وبلاد الهند، وبلاد يخرج إليها أبى.

وأجرى خلف البنات الصغيرات، أنجيل وفاطمة وسناء ومريم.

ويروق لى أن أقف جـوار أمى، وأسـرق كـبـدة البطة والبـصل المشوى.

فتجرى فاطمة ورائى وتلحقنى.

- والله لأموتك يا وديع.

- بحبك يا بت.

بحبك يا فاطمة.

***

٣

مروة العبد.

أنا من هنا. من هذا المكان الملىء بالنوم ورائحة العرق.

وأنا مثلك سَمعت الحكايات، ورأيت السماء والقمر، والبحر ملىء بالحوريات.

يعجبنى الغرباء، وأحب النظر إليهم.

وسرقت الشمس، واصطدت السمك، وعفرت وجهى بالتراب فى الترب يوم مات أبى.

يومها رأيته وجهًا لوجه.

اختبأت داخل ملابسى، ورسمت حفرة وشجرة، وطوحت بهما فى الهواء.

ما كنت أقدر أن أنجو، ولا أحتمل ثقل هذا الداء.

حين تراني في الوجوه المتعبة، ويتسلل بيننا وجه آخر، أعلم جيدًا من منا يحمل وجهه.

كنا صغارًا نلهو وراء الشمس الفارية، نصيد الفراشات ونمرح خلف الزنابير.

(يا طالع الشجرة

هات لي معاك بقرة

تحلب وتسقيني

بالمعلقة الصيني

والمعلقة أنكسرت

يا مين يربيني...).

وجاءت عمتي عاليا، أول مرة أراها.

كنت صغيرة.

وحين تركنا للنوم، نمت معها، رأيت ملاكًا يهبط يلفني، يضمني.

رأيت أبي.

إنه هو.. هو.

لا اذكر حدث أم لا، طفلة تنمو خارج مدينتها. تدخل مدينة غريبة باردة، وسحابات كثيفة من الأحلام والآمال.

لم أنم، كان يروق لي أن أسرق الشمس عبر الشيش وآخذها معي.

وفى الليل يسرى لهيبًا فى جسدى، ولا تغمض لى عين أهلكت من الشمس ما يربوا على المئات بل الآلاف، شموس صغيرة بأجنحة تطير.

كنت أختطفها وأخبأها داخلى، كى تظل النار مضرمة.

لم يعد لدى وقت لحسبان، هل أنا حقًا أبنة هذا المكان.

تهزنى المشاعر المختبئة بين أرادتى والحلم.

مجهول ما يسحبنى إلى عمق لا نهائى.

وأنا أحبك.

وديع.

قليلون يدخلون العتمة، ويغامرون بالروح والجسد.

الجميل أن تصبح همجى.. ولو على سبيل الآخرين.

وديع.

لم يعد لدى وقت للصمت.

* * *

- الفصل الرابع -

-١٠-

هبطت طائرة عاليا الحصن فى مطار الأقصر. ولم تكن تدرك إلى هذه اللحظة، كون المتاعب النفسية التى ستقابلها، لقد كانت تعانى من أمراض الساق السكرية، وأنها مهددة ببتر ساقيها أو أحداهما.

إنها عاليا الحصن، أبنة الشمال التى جاءت إلى الجنوب فى هجرة أبدية مع أبنها (سليمان) باحث الآثار الفرنسى وابن مسيو سوليه عاشق مصر، حفيد روبير سوليه صاحب كتاب «مصر ولع فرنسى».

فى زمان مختلف وغير متدارك ولا متعارف على ذهنها المصاب بالعطب والأرق، تزوجت عاليا الحصن من مسيو سوليه الفرنسى، وسافرت معه إلى فرنسا.

«فى أعماق القلب لا استطيع أن اتمالك نفسى من الصياح

هاتفًا: يالتعاستك يا فرنسا، إنه أنتِ التى كان يجب عليها غزو هذه البلاد، وغرس الصليب فيها، قد يكون عقاب من الله على جرائمك، أنه أسند هذه المهمة إلى آخرين.

الأمر الذى يبدو مؤكدًا هو أنه بشكل أو آخر ستصبح مصر على أية حال انجليزية إن لم تكن مسيحية».

•

لماذا أصطحبت عاليا كتاب مسيو روبير سوليه معها فى رحلتها النهائية؟

ولماذا عادت مروة العبد إلى بيت أبيها والعمات، ولم تصطحب عمتها فى رحلتها؟

كانت عاليا كل ليلة تخلد إلى النوم ومعها كتاب «مصر ولع فرنسى» تقرأه مرات ومرات، وتتوقف عند جمل وكلمات بعينها، وتخط تحتها خطوطًا رفيعة ودقيقة.

«هذا الشعب وديع مرح إلى أقصى حد بالرغم من بؤسه ومن خضوعه، إنه يضحك من كل شيء، ولا يفور غضبًا. صوته مرتفع ويصرخ كما يكثر من الإشارات والحركات مما يجعلنا نعتقد أنه غاضب، فى حين أنهم يضحكون».

تزوج سليمان سوليه من ابنة خاله مروة. وأصرت العمة أن تقيم

معها.

ولكن مروة دفعتها المغامرة والحنين إلى بلدها، مكانها الأول، وفتحت عيادة لعلاج الأمراض المستوطنة. وكانت من حين إلى آخر تزور سليمان وعمتها فى مكانهما، المنفى الإختيارى.

ومازالت العمة تخط الخطوط فى كل آفاقة لها وتشرح الكلمات، ثم تعود لغيبوبتها مرة أخرى.

«إننى أنظر على غير هدى إلى النهر وشطيه هناك على جرف رملى أصفر يقف سرب من النسور الكبيرة فى صف منتظم لكى تتدفأ فى الشمس.

إن أظفارها مفردة والظهر محنى والعنق مثنى والجناحين مسحوبين للأمام على كل جانب من الصدر وهى تتلقى باغتباط تدفق الضوء الذى ينتشر فوق ريشها لكى يغمره بدفئه.

هذا المنظر يماثل النحاتون القدامى يقومون برسمه للنسر (تخبت) الآلهة الحامية للفراعنة والتى تظللهم بأجنحتها.

قم بعزل أحد النسور من هذا السرب وألبسه التاج الفرعونى، وضع صولجان القوة فى مخالبه، ثم أبرز مظهره الجانبى فوق باقة من زهور اللوتس المتفتحة التى ترمز إلى مصر العليا.

وبذلك ستحصل على النقيشة التى تزين أحد جوانب الرئيسى لمعبد (خونو)، بل ستحصل أيضًا تحت الأردية على النسر

الحقيقى.

وبعد قليل يرى (مشهدًا كأنه لوحة منزوعة من جدار عتيق عند الذهاب إلى السوق المجاور. لقد رأى البقر ذاهبًا إلى الحقول فى خطوات متزنة وحرث الأرض.

إن الفلاح هذا الحارس غير الواعى لهذا الماضى الهائل يغفو بلا رغبات جديدة وتقريبًا بلا معاناه فالزمن يمر بمصر فى هدوء تسوده الشمس والموت».

* * *

٢٠

عاد مسيو سليمان سوليه من عمله، بعد أن غفت أمه وأغمضت عينيها، رأى الكتاب مازال راقدًا على صدرها، أخذه فى حذر ووضعه على المنضدة، سمع طرقًا خفيفًا فتح الباب، اذ بمروة تقف أمامه صامتة وفى يدها شنطة سفر كبيرة.

استيقظت عاليا، رأت ابنة أخيها تصرخ باكية، لإنها تريد العودة إلى فرنسا.

لحظة الصمت أشبه بقارب يطفو فوق سطح من الزئبق، يتهادى خارجًا من العتمة، لكنه لا يعرف وجهته.

- لماذا السفر؟

- أنسى سليمان أننا داخل قيود وأعراف.

وأننا مغسلون من الغباء والعتمة.

نحن معذبون.

- لماذا؟

- الدين ليس مظلتنا.

- ولا نتخلص منه كاملاً.

بامكانى فتح صدرى للهواء، واستنشاق ملء رئتى.

- أنت تعبر عن نفسك فقط.

- مروة.

- أرانى أنثى تغادر مخدعها توًا، تاركة وراءها كل ما تظنه خجلاً وحميميًا.

- أشم رائحة وديع.

- سليمان أكره الاستكانة لرغباتك فقط.

- اتركينى.

- أراك لا تترك لنفسك فرصة لإختراق العادة.

يفاجئنى سؤال دائم، لماذا أنتَ تحبنى؟

- أراكِ إيزيس.

أنا وأنتِ نرحل بعيدًا فى مراكب الشمس.

نسافر ونعود محملين بالنشوة والرغبة.

- أنا لستُ هى.

أنا مروة العبد.

ضحكت عاليا، وزغرت بعينين حمراويين، فانصرف سليمان صامتًا واغلق الباب خلفه.

وواصلت هى الضحك والمرح والحديث.

كانت لنا مدينة اسمها عرب الحصن، وكان الأولاد فى المدرسة ينادون فى الطابور يا عرب ويضحكون، كنا منبوذون من الجميع حتى المدرسين يهملون تعليمنا، وأحيانًا كانوا يطلقون علينا أسماء مختلفة، غز، غجر، حلب، نور، ليس هذا هو المهم، المهم أنهم نسوا أن أجدادنا جاءوا وراء الحملة الفرنسية، وراء نابليون من الشرقية إلى هنا متنقلين من بلد إلى بلد يصطادون الفرنساوية ويقتلونهم.

وحين أستقر بنا المطاف صرخ جدنا الكبير هنا نتحصن من الفرنسيس وغدًا لنا معهم معارك.

وأقمنا حصنًا منيعًا حكت عنه عمتى الكبيرة لزوجة أبنها وزوجة ابنها إلى زوجة ابنها إلى أن حكته لى أمى عرب الهنادى يناسبون الشيخ أحمد باشا الجزار ويواصلون حروبهم مع الفرنساوية (معركة المطرية وعين شمس) إلى أن أسر جدى عند ميدان ابن الحكم فطالبوا بفدية كبيرة وكانت الفدية هى عمتى الصغرى وذهب القبيلة بأجمعه. وتزوج الضابط الذى أسر جدى (كانت عمتى جميلة ساحرة) يوم رأها قال صارخًا إنها إزيس.. إزيس.

وفى الليل كنا نحاول تهريب العمة ولكن أخذها الضابط معه ورحل.

وحلمنا.. حلمنا.

وتزوجت من سوليه وسافرت معه وظل الحلم يراودنى أن أعود إلى بلدى موطنى.

وأنتِ تهربين.

- إنهم هنا يخنقونى.

- ياه يا بنت أخوى.

ولفتى على الغربة، وأنا اللى طول عمرى بحلم بوتد يربطنى.

- عمتى.

ودخلت فى حالة صمت، ثم هذيان، ثم كلام، مروة لا تستطيع تجميع معظمه إلا فيما ندر عند الإفاقات القليلة.

كنت أحب الزهور.

وعشقت الفن التصويرى، سافرت مع سوليه وجبت أماكن كثيرة باحثة عن كل ما هو أصيل وصادق.

كولومبيا، جنوب ووسط أفريقيا، الهند.

عشقت المهاباتا غاندى ورسالته.

ولكن ذات يوم وفى خريف سنة ٦٠ تحديدًا فى ٨ مارس عرفت بمحض الصدفة عن الحملة التى تقودها منظمة اليونسكو من جمع تبرعات من الفنانين وعشاق مصر.

فى هذه اللحظة أهتزت مشاعرى، كيف وأنا أبنة هذا الوادى الجميل حاملة الزكريات أقف هكذا مكتوفة الأيدى، وفى الحال حدثت زوجى سوليه وانضممنا إلى جامعى التبرعات وعدت من جديد أجوب العالم وأقابل المشاهير، ألتقط الصور لكل اللوحات التى تتحدث عن مصر.

صور مصورى القرن التاسع عشر.

وعرفت أنه قد سبقنى منذ زمن الأستاذ الجليل/ محمد محمود خليل كان لا يهمه أى ثمن مقابل أقتناء لوحة لمشاهير المصورين وأهدى أيامها نادى محمد على، والفنانين/ عن مصر، كل ما جمعه. ثم أوصى بعمل متحف قومى يحمل اسمه واسم زوجته يضم روائع المدرسة الإنطباعية الفرنسية.

وكان السيد الوزير/ ثروت عكاشة يوجه نداء إلى مثقفى العالم من الأدباء والفنانين وعشاق ومحبى الآثار المصرية وكان يعينه وقتها السيد رينيه رئيس منظمة اليونسكو، والتقيت أنا ومجموعة بالأستاذ ثروت عكاشة وبهرنى بطريقة تفكيره وحبه للآثار المصرية.

ومشروعه العظيم بإنقاذ معبدى أبو سمبل وفيلة.

كانت مصر فى ذلك الوقت تنهض بعمل مشروع حضارى هو بناء السد العالى.

خليط من الغرباء، لا تربطهم رابطة الدم يعملون من أجل نهضة مشروع لبلد غريب... وأنتِ تودين السفر، وتكرهين أن يناديك سليمان بإزيس.

«وبدأوا فى عمل لا ينتهى وهو فك النسيج الملفوف حول اللفافة المتصلبة، إنها سيدة عاشت منذ أربعة آلاف عام مضت..

وهم يفكون ولازالوا يفكون دون أن يبدو على اللفافة بأنها تتضاءل أو نشعر باقترابنا من الجسد.

يبدو على النسيج الكتان كأنه يتجدد وبأن المساعدين سيظلون يفكونه إلى ما لا نهاية. وبعد قليل وضعوا المومياء على قدميها من أجل الاسراع فى الفك الذى لا ينتهى لكنها ارتطمت بالمنضدة فأحدثت صوتًا خشنًا وكأن قدميها من الخشب، ورأيناها تحوم وتستدير وتهتز بشناعة ثم توقفت بين أذرع المساعدين الملهوفة، أعادوا إضجاعها فوق المنضدة واستمروا يفكونها..

وتحت كل إبط لهذه الملكة الميتة كانت توجد زهرة «إنها زهور عمرها أربعة آلاف عام»

وحين انتزعوا آخر شريط عن الوجه اكتشفنا فجأة عينا حيه أثارت الخوف. وبدت الأنف فطساء ومهشمة ومسدودة بالتحنيط.

وظهرت ابتسامة رقراقة ذهبية على شفاه الوجه الصغير الذى يعلو جمجمته شعر قصير وصغير لايزال رطبًا ومبتلاً بعرق سكرات الموت.

كانت هناك ممددة فوق هذه المنضدة امرأة مهانة ومذلة.

حرمتها مكشوفة للضوء وللأنظار فى وضح النهار.

كنا نضحك وندخن ونتسامر».

* * *

- الفصل الخامس -

١٠

كان عليها أن تقطع المسافة من باب شقتهم إلى بيته فى لمح البصر.

لولا ظروف الخوف التى تسيطر عليها، فهى تحمل له كوبًا من الحليب الطازج، وتخشى أن ينسكب على جلبابها الجديد والذى تريد فى شىء من الخجل أن يراه، ويراها جميلة.

كانت جد متعبة وحزينة وطواقة إلى رؤيته فهو لم يظهر فى الشرفة منذ أيام، أغلق على نفسه باب البيت وجلس وحيدًا، حزينًا، مستمتعًا بالهدوء والصمت وعيناه تتابع الخيالات المتضخمة على الحائط من حركاته والأثاث الموجود بالبيت.

إنه يبحث عن لوحة، عمل جديد، موديل مختلف، شىء يهزه بقوة وعنف.

أطفأ الأنوار وجلس ينصت إلى صوت خطواتها الصاعدة درجات

السلم عند الباب الخارجى وهى تصعد فى لهفة وشوق وحذر وارتعاش، ونادته بصوتها الرقيق الحذر، وآثرت أن يكون منخفضًا ومحملاً بلهفة وخوف.

ـ مسيوسوليه.

أنا عاليا.

طرقت الباب ببطء.

ـ اللبن يا مسيو.

اللبن سُخن.

تردد كثيرًا، كيف يستقبلها فى عتمته ووحدته؟ كيف يفتح لها الباب ويدخلها، وهو عاريًا؟

هذه كانت عادته عندما يترك وحيدًا يخلع ملابسه، ويظل عاريًا، متوحدًا مع العتمة.

من الداخل ناداها فى حذر وحيطه.

ـ ضعيه أمام الباب يا مدمزيل.

وضعت الكوب أمام الباب وتراجعت فى بطء واختفت خلف الشجرة الكبيرة جنب السور، وانتظرت أن يخرج ويأخذه.

هو فى عتمته بالداخل.

وهى تقف على الحافة خارج الباب تتوارى خلف الشجرة جوار السور.

تنظر بعينها القططية الخضراء.. وتنتظر.

تتسلل يد عارية من فتحة الباب، تقبض على الكوب بقوة، تصيح عاليا من مكمنها.

- مساء الخير مسيو.

ثلاث زهرات تكمن داخلها وتبحث عنها فى علاقتها القادمة به.

الطعم... طعم القبلة.

الرائحة... رائحة العرق.

الحرارة... ارتعاشة جسدها.

* * *

■٢■

«يا من أدخلتم الأرواح فى بيت أوزير دعـوا روحى تدخل أيضًا معكم بيت أوزير.

وأن اسمع مثلما تسمعون.. يا من تعطون الخبز والجعة للروح فى بيت أوزير.. أعطوا لروحى الخبز والجعة، يا من تفتحون وتمهدون الممرات للأرواح فى بيت أوزير، افتحوا الطريق ومهدوا الممرات لروحى أيضًا لتدخل مطمئنة لبيت أوزير وتخرج فى سلام منه دون أن يقف أحد ضدها أو يعيقها لتدخل ممجدة وتخرج محبوبة صوتها صادق، وكل ما تفتقده يلى لها فى بيت أوزير».

هكذا أنت دومًا شغوفًا بالمغامرة، لا تمل الحرث والجنى وتقليب الأرض، باحثًا عن لحظة غامضة وحقيقية، قفصًا كبيرًا تفتح الباب، تضع الدجاجات عشيقاتك فى أعشاشها، وصورهن على الحوائط

ولا تنسى أن تلمس بطرف أصبعك على خد كل منهن.

ماذا عساك لو تركتها.

- مسيو سوليه.

الساعة الآن الواحدة.

- لا فائدة من الذهاب، ولا جدوى من العودة للنوم.

- عيد ميلاد سعيد.

مسيو.

كل سنه وأنتَ طيب.

- وأنتِ طيبة يا عاليا.

متى أكلت التفاحة كاملة؟

كنت أريد أن أطرحها جانبًا، لأتفرغ للوحاتى.

أفض قصاصات قلبى من الريح والدم والدموع.

وصوت عاليا يهنئنى.

- عيد سعيد مسيو.

لم ألمس شفتاها، ولا يداها، لم أداعب القطط التى تفور فى صدرها، لم أغرس أظافرى فى جسدها، فقط وجدتها أمامى.. شهية طازجة.

واللبن مسكوب على الأرض، وهى تناديني: اللبن سخن مسيو.

الجو بالخارج هادىء، ملىء بالذكريات.

لا أريد النوم.

ورأيت حشدًا من البدو والأهالى يهجمون بوحشية على البيت وأنا وحيدًا عاريًا.

- تضع أصبعك فى عين غيرك.

أخرجت مسدس لأحمى نفسى، ولكن ألقيته وأعترفت بحبها.. وهربنا.

أحيانًا أهجر الناس، وأحيانًا أحبهم، وأحيانًا أهجرها طويلاً، وأجرى وراء حدث أعمى، لا أعرف لماذا أريد إلامها.

متى يؤل مصيرى واستريح.

- عاليا.

لو سمعتى كلمة أحبك خذى حياتك واهربى.

- ألا تؤمن بالحب.

- أخافه، لأنه يشلنى، يثبتنى للأبد.

- لماذا تزوجتنى.

- .....

- كى تعترف بأخطاءك.

- هل هى جد أخطائى.

لأنكِ لم تذهبى بعيدًا عن مكانك، فأنتِ لا تراتَى جيدًا.

فى يوم ما سوف أكون معكِ، وبعيدًا عنكِ.

ومختلف بشكل يؤلمك.

وحدكَ تبح صوت الريح، والمطر، وتمتطى رخًا من الأحلام.

ربما ترانى، ولكنك لا تعرفنى.

ولأنك عميق المشاعر، فأنتَ دائمًا مشتعل.

* * *

٣

وأنا فى العاشرة، أصحو فزعة صارخة، تحتضنى أمى، وتغنى لى.

هل عرفت الجوع والعطش، وتشققت شفتاك لأنك لم تذق طعم اللبن.

وهل عشقت الحمامات وأخرجتها من أعشاشها، منطلقة فى فراغ الحجرة، ويتم عقابك بموس حامى فى منطقة داكنة بين فخذيك (لأنك عربيد)؟

أبى ينجو من الموت بالموت.

وأمى تسوى فراش الزيجات الجديدة، وتبذر الملح فى عين الحاسد (هل أنت مثلهم)؟ألم أطراف الحديث أمام عماتى عندما أصادفهن. وينادين أمى، خلافة البنات، ويضحكن (عاليا كبرت) أنا لا أهزر.

أمى كانت تقول أبى (متلوف أمله) ثم تفتح الحجرة وترد طرف الثوب على جسمها، وتلطم لأنى تركت المدرسة وفررت بعيدًا.

كنت أعشق لوحاتك وأتلصص عليك أيامًا طويلة وأنت تضرب بالفرشاة فتخرج من الصمت أحياء،

المدرسة كانت كنز أمى.

ونسيت أن جسدى ملك لى، أهبه لمن أشاء، للنشوة وتغيظنى ملاطفات العجائز (كبرتى يا عاليا).

وأيديهن الفاجرة تتحسس أعضائى بخفة ورعونة من باب المداعبة.

ما كنت أعرف أنكَ وحيدًا.

كنت أرى البيت مليئًا، وفى يوم خرجنا وتركنا أدواتنا ومتاعنا لنواجه مصير واحد.. أنا وأمى.. طردنا أبى، هكذا كانت حياتنا مزيج من الرعب والحب والمداعبة، ويوم أحضرت لك اللبن.

ايقنت أن لا فرق بينك وبين الآخرين.

أنا وأنتَ فى خندق واحد.

عرفت لماذا أنا أحبك.

لأنك لا تشبه أبى.

ولا أنا مثل أمى.

صامت.
لكن هناك أمور لا تدركها.
أمامنا مئات من السنين كى نحيا حريتنا.
أننا ضعفاء عندما نواجه من نحب.
- عاليا.
هناك أشياء كثيرة مازلت ممتلىء بها.
الفن والرسم والتاريخ الفرعونى والآثار.
ولا أعرف مدى تعلقى بك.
ولكن هذا كتاب جدى روبير سوليه اقرأ يه جيدًا.
- تكون جميلاً عندما ترتشف الشاى بهدوء.
وتمعن النظر فيمن حولك.
كأنك تتأمل العالم، وتعيد الخلق من جديد.
- لقد كنت أعيد تنظيم نفسى.
وأبحث ربما عنكِ.
- يؤلمنى أنكَ صريح.
وأراك دائمًا مرتابًا، وتحاول أن تصف الأشياء.
واحيانًا تنادى بصوت خشن.
أعدى الطعام يا عاليا.
يسيل لعابك وتركن إلى الضحك واللعب مع سليمان.
- الرهبان على استعداد دائم للصلاة يا عاليا.

* * *

■٤■

كنتُ مفتونًا بها لأيام طويلة.

ونحن نوزع الأرغفة على العشاء، ونخطف طعامنا وسط الأصدقاء.

ألمح بين شفتيها حبى لها، وأنها تبادلنى الألم والسعادة.

كم يكون قاسيًا أن تكون مرغوبًا.

وعيناها تتابعنى بحنان وتبتسم (مسيو سوليه) أنتَ جميل، إنها نافورة وسط عيدان جافة من الصور واللوحات، نفس طويل يتمد بيننا، وسكون لا يقطعه سوى..

فى مساء مددت يدى مداعبًا يدها.

ـ مسافر افريقيا.

ـ أسافر معك.

تراجعت، كانت طازجة، كأن نورًا سقط فوقى ورفعنى.

- ديمًا معاك.

الست مطرح ما يروح جوزها.

- عاليا أنتِ الحقيقة الباقية.

لقد هربت من نفسى إليكِ.

***

ـ٥ـ

لا شيء هنا يذكرني في البلاد الباردة بأمي وأبي، وبما كنا عليه.

لا أذكر سوى الجلباب المليء بالدم.

والذي احتفظ به طويلاً رغمًا عني كان شيئًا يذكرني ببيتي ووطني وكأنه هو الثمن.

كان هناك من يشد على وتر داخلي كي يعذبني، لأننا اثنان مختلفان في بلد غريبة عليَّ ولغة أغرب.

وهناك كثير من التناقضات بيننا، لا مجال لها الآن.

أندمج سوليه في عمله، وأنا أراني متعبة ولكن أحبه، هل أتركه؟

لا أعرف.

كثيرًا سألت نفسي هذا السؤال.

ولكن لا أقدر على تركه بعد أن آتى سليمان، ملأ حياتى واسماه على اسم ابن مسيو مينو قائد الحملة الفرنسية الذى اسماه بدوره على اسم سليمان الحلبى قاتل كليبر.

كان مينو صديق حميم لمسيو روبير سوليه.

وهكذا لا أقوى على ترك جزء اخترته واخترق حياتى.

وظهرت فجأة يا سليمان فى حياتى، فلا أعرف أكنت سبب شقائى أم سعادتى؟

ولكن نفيت من قلبى ورأسى فكرة العودة.

إن مُت أدفنى جوار الأجداد.

* * *

ـ الفصل السادس ـ

١٠

حيرة ووحشة، وبرد يسيطر على كل حواسها.

تريد أن تبكى، فترتعش بردًا.

وتردد أسماء قديمة، ربما تكون من لغة قديمة أو مجهولة أو سمعتها من قبل، إنما فى هذه اللحظة هى لا تعرف ما بداخلها ولما كل هذه اللوعة والشوق والحنين، وشبق يجعلها فى متاهة، ومتناهية التكاسل والأرق.

وتتساقط روحها محترقة فى ضبابية لا تعرف متى تنتهى وما مداها.

إنها الحرقة.

الحرقة والشوق.

من لم تحلم؟ تُجن!

وعلى هذا الأساس دخل الرجل حياتها.

هكذا كانت طواقة للحلم، الحلم الخاص النابع من أعماق ذاتها المنطوية على ألفة بارعة من الوحدة والعزلة.

العزلة المفروضة عليها بالقوة من قبل الآخرين.

الآخرين الأكثر جرأة، الأكثر حرية، الأكثر قوة، وبطشًا، الأكثر تشبثًا بالحياة.

أما هى الكائن الوحيد القاطن فى البيت، القابع داخل قوقعته يريد أن ينهض، يريد أن يفتح مغاليق حياته، يسبح فى ملكوت واسع، ينهش كل ما هو مقزز، ويفر هاربًا إلى مكان بعيد، وجديد.

لقد كانت فاطمة طواقة إلى الخروج، من أسر عشرين عامًا مضت.

كانت طواقة إلى المعرفة، التحدى، حتى ولو بخرق العادات واختراع الأكاذيب.

كان الآخرون بالنسبة لها يشكلون بلونات هوائية، تراها تتطاير أمام عينيها، فتفرح بطيارانهم.

وكانت تفضح هذا الهراء بسكونها، بوحدتها المغلفة بها.

كانت تباغتهم بالصمت، بالصدق، من خلال تجربتها الوحيدة، وماضيها المغلق، والمغلف بسليفان أزرق لا يراه إلا من يريد أن يخترقه بجرأة المحب الجسور.

فى أيامها الأولى من العزلة.

والخروج من مصر شبه منفيه نفيًا لا أراديًا.

وتزوجت وأنجبت ثلاثة أولاد (محمد محمود وأحمد).

كان الخروج والفرح بهم وكسر غلاف الألفة هو سلوتها واستطاعت أن تؤلف صحبة صغيرة منهم، ولكن التجربة حزينة، وتستمر، تستمر إلى أن تنتهى بالهرب.

***

٢

فى الأيام الأولى للمعرفة الصغيرة.

والألفة الجديدة.

فى مكان مجهز خصيصًا لأستقبال الصغار الذين أكملوا الست سنوات.

احتضنتها الجدران، وعرفته.

بصمته الأليف، بوحدته المغلقة مثلها، بهدوئه الذى أثار تطفلها الطفولى.

ومريلة التيل نادية ورباط حذاءها الأسود.

الذى لم تكن تعرف كيف تقوم بربطه، تطوع هو وانحنى يربط لها الحذاء المفكوك.

وفكت قلبها الصغير، العصفور المفرد فتح منقاره وشدى.

حنت رأسها قليلاً، ومدت يدها تجاهه: أشكرك.

أخذ يديها بين يديه، ونزلا السلم معًا ببطء وبسمة، وأوصلها إلى باب بيتها.

ومن ليلتها بدأت ترى عينيه، ترى بسمته، طيبته، وقلبه الصغير يغرد كل صباح وينتظرها! صباح الخير يا فاطمة.

صباح الخير يا مصطفى.

لم تكن تدربت على الكذب.

كل ما كان داخلها، كان طفوليًا، بريئًا، ورقيقًا، غضًا.

- صباح النور ياوديع.

لم تحسب سنواتها التى امتدت فى الصباحات والمساءات والسؤال وفهم بعض المسائل، إلا عندما رأته ذات صباح يقف أمامها شامخًا بصوته الخشن وذقنه التى نبتت فجأة.

نظرت فى عينيه، عرفت طعمًا آخر للحياة.

عرفت معنى أن يدق القلب طربًا، له بعينه، ويقف أمام الباب ليوصلها إلى المدرسة.

كان يتوارى خجلاً أمام عينيها الجريئتين، الصامتتين الفرحتين فى صمت.

وفى يوم ناداها.

- فاطمة.

صمتت، صمتًا طويلاً.

ثم بكت بحرقة.

. بابا مات.

كان الوعى قد بدأ يدب داخلها.

وتتحدد ملامح أنوثتها، دون أن تدرى ماهية كونها أنثى.

مد يده على رأسها فى حنو.

. يا حبيبتى.

بدأت تضع درقة على صدرها، وتتوارى منه.

صنعت عزله وعجزت عن معرفة أسبابها، وفشلت فى نسيانه.

وغابت.

غابت السنوات.

وزحف الصمت.

وكان صيفًا.

صدرًا نابتًا، نافرًا، زغب صغير أعلى الشفة.

رائحة عطر غريب بدأت تغزوها أثناء نومها.

لم تكن تدرك أن هناك روائح خاصه للجسد، الجسد الأنثوى.

وطعنها مصطفى فى مقتل وأخذها معه.

* * *

٣٠

من يملك النظر طويلاً إلى شعلة النار؟

أو يملك النظر فى وجه الشمس؟

من لم يباغته سؤال ملغز، هل أنتَ عاشق؟

هل مارست حياتك بحرية؟

وأنتظرت فتاتك طويلاً داخل المحطات.

وخرجت على إثر لقاءها تزم شفتيك، وتلقى بتفلة طويلة فى وجه المارة، وهم ينظرون إلى فتاتك وهى تتعلق بذراعك بدون حذر أو خوف.

فاطمة.

أين أنتِ الآن يا حبيبتى؟

كم ساهم الآخرون فى تخريب نشوتنا، وتدمير ما نشعر به إزاء اللحظة.

اللحظة التى ربما تدوم، أو لا تمتد طويلاً، ولا يمكن إستعادتها بأى شكل من الأشكال.

فاللحظات الجميلة ملغزة وسريعة المرور.

أما اللحظات الأخرى فهى بطيئة ومتواطئة مع الزمن كى لا تمر.

كى لا يحدث شىء، أو على أقل تقدير تمر على مهلها، وتخرج لنا فى سفالة لسانها الحار.

وأنا أتباطأ فى سيرى، واضعًا يدى داخل جيبى وأسير فى الشوارع والميادين صامتًا، ضائعًا، باحثًا.

- أين أنتَ الآن يا وديع؟

القديم باقى بقاء رسوخ الروح.

ذهبت بعيدًا، أذبت جبال الثلج داخلك، وعدت.

الأيام تمر بشكل بطىء، لا تدل سوى على بركة راكدة فاسدة، يطن داخلها مئات من الذباب والباعوض ورطوبة الصيف مدمرة.

والأعوام تمر.

.. ميدان الأوبرا.

المكان القديم، الواقف به تمثال إبراهيم باشا رافعًا أصبعه تجاه المجهول.

تجاه عظمة غامضة وصامتة ومغلفة بمرارة السنوات الماضية من حروب وانتصارات، وإنكسارات.

فتشت داخل جيبى وجدت جنيهًا، أمسكته فى صمت، وأغلقت عليه كفى وسرت.

أتلفت حولى باحثًا عن مقهى يقينى هذا الحر.

مئات الطعنات تطعننى.

ومئات الطنات تطن فى أذنى.

هوس سمعى وبصرى، أصوات تزعجنى، تثير هواجسى.

أجول فى الشوارع أبحث بعينى عن شىء يخرجنى من هذا الشعور المتفاقم بالتعاسة.

وفشلت فى تحديد نوع هذا الشعور المختلط بالملل.

فشلت فى أن أقتنى حبًا ومباهج.

فشلت فى أن أحتفظ بود مروة وصداقة سليمان وحب فاطمة.

كنت أدفع عجلة الوقت بقوة ذراعيين طيبين.

فشلت فى أن أجد حركة خارجى، تخرجنى من هذا الإحساس البليد بالعدمية والانتماء.

فشلت فى القبض على ذاتى، واللحظات الهاربة.

الكتب متراصة فى الشوارع، والشيش مغلق، والهدوء والسكون، والناس والباعة، كل هذه الأشياء تستدعى شهيتى للقرف، للنفور، للأتيان بفعل قبيح، أو قىء، أو أشعال النار دفعة واحدة.

خرجت هاربًا.

دلفت إلى شارع الألفى، وجدت مقهى صغير، جلست أستريح.

- شاى من فضلك.

الصور صامتة، الأبواب صامتة، الجدران صامتة.

الناس صامتون. كأن الصمت أصبح رداء

يتباهى به المحيطون بى.

هنا كان بيت الألفى، أخذه الفرنساييين مقرًا لهم. وهنا قتل كليبر فى قصر الأزبكية.

سنوات تمر، وشىء ما يفقد بريقه، وجوده وشىء ما ينغرس مكانه.

شىء بدائى مثل الريح، مثل النار، مثل حفيف الأشجار، مثل (الكا) مثل قارب نفتيس وهى تفتش عن جسد أخيها العاشق الجريح.

روائح قديمة تغزونى، مثل فنار قديم، أو معبد إزيس، أو هرم سقارة.

أو مثل امرأة عجوز عجفاء، سوف تقتلنى أو مثل حقيبة أبى التى تخلصت منها وألقيتها فى النهر.

حابى الصافى الوديع، خذ هدية متواضعة من قلب مثقل بالآلام ومصلوب دون جريمة.

الحواديت لم تعد تثير فىَّ شهقة الماضى البعيد وأنا على حدود النوم والذاكرة تتسع، تتسع وتدخل فيها روائح الماضى، وعبق التاريخ.

كان كليبر يسير بصحبة المهندس بروتان وفى رواق طويل تظلله تكعيبة من العنب وبينما هما سائران إذ خرج عليهما رجل يكمن وراء بئر عليها ساقية، فاقترب من الجنرال كمن يريد أن يستجديه أو يتوسل إليه، فلم يرتب الجنرال فى نية ذلك السائل، لكنه لم يكد يلتفت إليه حتى عاجله القاتل بطعنة خنجر مميتة أصابته فى صدره.

النغمات تطن فى أذنى.

وتهاجر كل المعزوفات السابقة، موروثى الشخصى أصبح ضحل، ولا يمكن إستعادته بنفس اللذة السابقة.

أنا الآن أشبه بالبيض المسلوق الذى أبتلعه بغصة فى الحلق.

وضع النادل كوبًا آخر أمامى ضاحكًا.

- الشاى يا أستاذ.

روق، محدش واخد منها حاجة.

أنا لا أميل للّعته أو الندم.

ولكن هناك لذة ما فقدت، وأصبحت قديمة، تشبه طفل كان يحبو، ثم فجأة شب على أطراف أصابعه وتشبث بالمقعد.

ومن يومها فقد ملكة الحبو والحبور، وعرف طريقًا آخر،

كان الحكم على سليمان الحلبى بإحراق يده اليمنى التى باشر بها القتل ثم إعدامه على الخازوق، وترك جثته تأكلها جوارح الطير.

ووقع.

فتهشم.. تهشم.

وبقى ما بقى ملقى على الأرض.

فاطمة، لا أعرف لماذا تذكرتك.

تبسمت خجلاً، ودسست لها داخل حقيبتها جوابًا صغيرًا.

أتت عرافة إلى المقهى توشوش الودع، امرأة غجرية ضامرة تهز رأسها فى قوة وعنف.

كأن هناك سرًا ما تملكه وتراوغ فى البوح به.

أو كأنها تبحث عن شخص بعينه.

وجاءت إلى جوارى. (مددت لها يدى بكوب الشاى).

- قليل الحظ يا ولدى.

الصناديق المغلقة فى العليات البعيدة.

والتى نهجرها لحظة خروجنا من الأغلفة الطفولية، لم نعد نحس بطازجتها، ولا بالعبق الخاص بها، فقط نشعر أنها جد قديمة ومغلقة كأسرار الحاوى المحنك فى فك دائرتين أمام اعيننا الصغيرة.

ونهلل له مبتهجين.

هذا الساحر الآن فك طلَّسمه، وأصبح رجلاً عاديًا، لا يجيد مهارة شىء، سوى السير على قدميه لدفع الحساب.

ولكنه يحوى سرًا.

يشبه الغجرية الضامرة.

إنها النار.. السر الأعظم.. الخلود.

روح ملتبسة تطاردنى، وأنا أهرب، أهرب، تطاردنى أهرب.

تطاردنى أراوغ.

تطاردنى أموت.

أخذ النادل الحساب والكوب، وهى تتلذذ بآخر رشفة.

ثم فوجئت بها طعنة قوية، قاسية، متوحشة

تطعنى بخنجر فى قلبى.

***

- الفصل السابع -

١٠

هنا بعد العديد من السنين.

والمؤامرات العائلية.

وأهمال الأصدقاء.

تجلس أنثى مرتبكة، بقلبها المفرط فى الحب.

تطرح قلبها جانبًا وتفكر.

- ماذا بعد يا مروة.

بعد هذه التوهمات والصحراء والمهاتارات.

تغلقين صفحة من كتاب قديم.

تتأملين النيل طويلاً.

بعد أثنى عشر عامًا، عادت مروة العبد تركب الأتوبيس.

وتهوى المشى على الكورنيش.

عـادت تردد آيات الحب السـابقـة، وتبحلق فى المـارة الواقفـين والجالسين، وصفحة النهر.

عادت تملأ رئتيها بهواء بارد.

وريح الشتاء الرطب.

وتسعل من كثرة التدخين.

كأنها تدخن للمرة الأولى.

وتجرب الحياة ثانية.

تجرب المـرور بين العـربات والناس، وتستـمتع بصـمت عينيـها المحدقتين فى الماء.

تستـمتع بنسـمة باردة هبت فـأرتعشت وضـغطت على أسنـانهـا، ورفعت ياقت الجاكت.

الآن ترى الأشياء من جديد، بعد أثنى عشرًا عامًا مع سليمان.

كأن الأعوام لم تمضى.

وفجأة وجدت نفسها وحيدة.

تريد مقعدًا تجلس عليه.

تستمتع بدفىء الشمس والهدوء والسكينة الطافية عليها.

أختارت مكانًا قصيًا.

نفس المكان.

نفس درجات السلم.

نفس الكازينو.

نفس الأغنية تتردد داخلها.

(الشوارع حواديت.

حواداية العشق فيها، وحواداية العفاريت.

الشارع ده رحنا فيه المدرسة.

اللى باقى منه باقى، واللى مش باقى اتنسى.

كنسوه الكناسين بالمكنسة).

كانت تتوق دائمًا إلى عشق شهوانى.

عشق تتمرس فيه على حب حبيبها، بطريقة ترضيها، وتحقق أنوثتها.

طريقة لا تشعر فيها أنها مبتذلة، أو أنها جسد فقط، بل امرأة لابد من أقتحامها عنوة.

تتدرج فى العشق درجة، درجة.

بنعومة ويسر، يدفعها إلى اقتناء حبيبها، ولا تهجره، وتكون رطبة ممتعة، تمارس الحب كأنها لم تحيا من قبل.

أتى إلى جوارها رجلاً أفسد عليها متعتها، والأسترسال.

اضطرت إلى ترك المكان.

المترو مزدحم.

تصعد، تجلس، تنشغل مؤقتًا بالنظر إلى المحطات، والناس وحركة الهبوط والصعود.

تفتش بينهم عن طيف يراودها وتتعلق عيناها به.

إنه هو.. هو.

هذا طيفه.

هذه رائحته.

تعرفه، يطاردها منذ وقت بعيد.

كلما جلست فى مكان ما، واختلت بنفسها وتمعنت داخلها.

إلا ورأته يتبدى أمامها واضحًا.

ملامحه، وسامته، طوله السامق، ضحكته البريئة وخلفها أسنانه الصفراء.

تمنت داخلها أن يظل واقفًا، تنظر إليه وتتأمله، فى صمت.

حين مدت يدها وأمسكت يده.

- وديع؟

* * *

٢

أمام كل هذا القبح.

ووحشة لا أنتهاء منها.

دفعت بجسدها بين الأجساد الواقفة، ونزلت لم تلتفت إليه.

دفع يده داخل جيبه وسار يهرول وراءها.. فاطمة.

يهرول بخطى واسعة، وراء أنثى كانت تتكىء على حافة الباب صامته، هادئة، تنظر نظرة طويلة نحوه.

النيل الرائق ينساب فى دعة وإفراط وهدوء.

اقترب منها.

أخذ يتشمم صمتها، هدوءها، لهفتها للبكاء.

عيناها كانتا متقدتان، دامعتان.

ومن آن لآخر تمسح الدمعات المتساقطة بظهر يدها، وعندما

اطمئن أنها لا تبال به، ولا تنظر تجاهه أخذ يتحسس طريقة للقرب منها.

يقترب، يقترب إلى أن مديده ومسح دمعة سقطت على وجهها.

كانت بلورية مثل لؤلؤة، ساخنة مثل بركان، طازجة مثل قلبها.

سقطت دون إرادة منها.

همس لها فى رقة.

ـ أزيك.. يا فاطمة.

فوجئت به.

كأنها لأول مرة ترى رجلاً قريبًا منها.

يتشمم ضعفها، يباغتها، يجرح صمتها.

وانسابت الكلمات فى نعومة من بين شفتيها.

ـ الظاهر نسيت نفسى.

بعد إذنك.. يا أستاذ.

خطفت ضعفها، خطفت خطواتها، وراحت ترحل من أمامه تاركة السور والكورنيش والماء الرائق، والدمعة التى سقطت من عينيها.

وابتعدت.

ابتعدت فى خطوات واسعة.

ورأها هناك على الرصيف الآخر.

شعر أن قلبه ذهب وراءها، تركه وحيدًا، وأن روحه أصبحت تبتعد عنه فى شفافية وتختفى.

حاول إنقاذ جسده من السقوط، فصار يجرى.

- فاطمة.

لم تلتفت إليه، صارت تبتعد، وهو يلحقها مناديًا.

- ارجوكِ.

أصبح إلى جوارها، وهى تسير متوحدة مع الصمت.

وهو يحاول لم أشلاءه المبعثرة واقترب.

- ارجوكِ.

ممكن أسألك، لماذا الهرب.

كانت كلماته رغم بساطتها، رغم تواضعها حافزًا أكثر على الصمت.

ودعوة ملحة للإقتراب.

أخذت تزيح بأصابعها بعض الخصلات التى ظهرت من الإيشارب ووقفت.

- لو سمحت.

عايزه افضل لوحدى.

وتركته ثانية.

تركت كلماتها على الرصيف، كما تركت من قبل دمعة هناك.

تركته واقفًا، صامتًا، صابرًا، يتبعها بنظراته وهى تهرول هاربة.

إنه يود أن يعرف.

يود لو كان داخلها، تتنفسه، تدفعه.

يود أن يكون لها.

فتكون له بمثابة إزيس وهو حور الطيب المحب، التابع الأمين.

يود أن يحتفى معها بعيد ميلاده الأربعين، برؤيته لدمعها.

بالإمساك بقلبه وإعطاءه لها.

- دعينى أقترب منك.

كان يود أن يكون فارسها.

وهى فرسته الحرون.

يكون أول الفاتحين، أول الغازين، أول من استرق السمع وسمح لنفسه بإختراق عرشها.

ولكنها لم تمنحه شرف الإقدام.

فهى تحتفى بأشياءها الخاصة والغامضة.

تخص نفسها بثقة فى أنها بلا فتوحات، بلا غزوات بلا معارك، بلا فاتحين، بلا منتصر يقف مقهقهًا.

* * *

الهوامش:

- القصيدة أغنية لفاطمة - مجاهد الطيب.
- كتاب مصر ولع فرنسي - روبير سوليه.

صدر للكاتبة:

- حكايات الليل (مجموعة قصصية) القاهرة ٨٤.
- تلك القاهرة (ديوان قصص) القاهرة ٩٠.
- أشياء صغيرة وأليفة (قصص) أصوات أدبية ٩٦.
- بنات فى بنات (قصص) كتابات جديدة ٢٠٠١.
- من حلاوة الروح (رواية بالعامية) اصدارات رؤى ٢٠٠٢.

تحت الطبع:

- سيدة المكان. (قصص).
- حتى تمتلىء بالموسيقى (قصص).
- فى الليل لما خيلى (رواية).

فهرس

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ١٤١٩٥ / ٢٠٠٣

I. S. B. N 977 - 01 - 8770 - 4